

الدكتور محمد السعدى فرهود

زاملت الدكتور محمد السعدى فرهود فى مراحل الدراسة التعليميّة بالابتدائى والثانوى وكلية اللغة العربية ومعهد التربية العالى، ثم زاملته فى مرحلة التدريس الجامعى مدرساً وأستاذاً، فلم أر تغييراً فى أخلاقه منذ عرفته، مما أكد لى أن الطبع الإنسانى المفطور على جيّله لا يتغير بتغير الأحوال والملابسات، وما يُظن أنه تطويرٌ وانتقال، هو شىء ظاهرى مفتعل، إذ أن الجوهر الأصيل يظل محتفظاً بجمده، فكل ما يراه خلفاؤه اليوم من هدوئه ورزاقته وسعيه فى الخير كان واضحاً عند الطالب الصغير فى المعهد الابتدائى بالأزهر، هكذا رأيت ولمست!

ولقد كان مع هذه السجايا الخلقية غيوراً على سمعته العلمية، إذ كان حريصاً كل الحرص على أن يكون الأوّل بين زملائه، وقد تحقق له ذلك فى أكثر السنوات، وفى السنوات التى جاء فيها الثانى كان يأخذ نفسه بأسباب اللوم، إذ يكون أمامها مقصراً، وأنا أعلم أن درجات الشفوى بالأزهر قد تُعطى لمن لا يستحق فيسبق الكادح الجاد، ولكن الله يعوض كثيراً فيما بعد . . .

أول ما عرفت الطالب محمد السعدى فرهود كان فى حفل عام أقامه معهد دمياط الدينى فى مناسبة المولد النبوى الشريف، وقد حضره محافظ الإقليم وفريق من عليّة القوم، وقام كبار الأساتذة يُلقون كلماتهم الموسميّة، فيمتعون، ثم قام الطالب محمد السعدى ممثلاً لزملائه، فألقى كلمة ضافية، جذبت إليها الأنظار، إذ ترك المعانى التقليدية التى تُكرّر فى هذه المناسبة، والتى توسّع فيها بعض من سبقه من الأساتذة المتكلمين إلى عناصر جديدة تتصل بأخلاق صاحب السيرة المطهّرة،

وكان إلقاؤه يزيّنُ بيانه، فخرج السامعون يشنون عليه تفكيراً وإلقاءً وهدوءاً، ومن يومها طابَ لى أن أعرف الكثير عنه .

ذهبنا إلى معهد الزقازيق الثانوى، فحافظ محمد السعدى على أوليته المعهودة، وأعدّ نفسه ليكون أولَ الشهادة الثانوية على القطر جميعه، ولكنّ ظروفًا سياسية عاقته عن الالتحاق بالدور الأول، ظروفًا لا شأن له بها، إذ أنّ غيرته الإقليمية دفعته إلى مناصرة زعيم سياسى من أبناء بلدته (الزرقا)، وأتت الرياح بما لا يشتهي، فذهب عهدٌ وجاء عهد، يُناوئُ الزعيم، وتأخر السعدى عن الالتحاق بدار العلوم التى كان مصممًا على دخولها، فانتسب لكلية اللغة العربية غاضبًا، ولم يدر أن إرادة الله فوق كل إرادة، إذ كان فى طىّ الغيب أن يُصبح محمد السعدى عميدًا لكلية اللغة العربية، فمديرًا لجامعة الأزهر، فهل أقول له اليوم: «وما تشاءون إلا أن يشاء الله» .

برز السعدى فى كليته الأزهرية، وكان رئيسًا لجماعة «الضاد» التى أسسها الأستاذ الدكتور أحمد الشرباصى رحمه الله، أخذ الرئاسة بعد تخرج الدكتور الشرباصى، فزاوِل النشاط الأدبى، وسار له بالكلية ذكر حميد، وأشير إلى أن أحد أساتذته كان يعهد إليه بتحضير الدرس الأدبى ليلقيه على الطلاب تمرينًا للنابهن، وهو سلوكٌ تربوى ناجح، لأن الطالب حين يقفُ أمام زملائه موقف الأستاذ يشمر عن ساعد الجد، ويحاول أن يملأ الموقف قدر ما يستطيع، وقد ألقى الطالب محمد السعدى عدة محاضرات عن الشاعر العباسى بشّار بن بُرد، حازت إعجاب أستاذنا الكبير أحمد شفيع السيد رحمه الله، فأثنى عليه فى الملأ المشهود، وتنبأ له بمستقبل زاهر . . ثم مضت الأيام فأبرزت تحقيق نبوءته! . .

وانتقلنا بعد الكلية إلى معهد التربية العالى بالإسكندرية، فدرَسنا الجديد من علوم النفس والتربية والاجتماع مما لم نكن نألفه فى الدراسة الأزهرية، وأذكرُ أن الدكتور رياض عسكر أشار فى بعض محاضراته إلى «مجلس الآباء» وضرورة إنشائه بالمدارس المصرية تقليدًا للمدارس الإنجليزية، فأعجبتِ الفكرة الطالب محمد السعدى فرهود، وكتب مقالًا تربويًا نشرته جريدة الأهرام فى مكان

بارز، وتوالى الرد عليه، لدرجة أدهشت الدكتور عسكر، وتمنى أن يُرزق من الطلاب مَنْ يُذيعون الرأى التربوى على نطاق جهير. ثم تفرقنا بعد التعلّم، ومضت عدة سنوات حتى جاءنى خطاب رقيق من الأستاذ محمد السعدى فرهود يعلن أنه يكتبُ رسالة الدكتوراه عن شعر الأستاذ عبد الرحمن شكرى، وقد علم أن لَدَى بعض رسائله الخاصة، ويريد الاطلاع عليها، فربما يكون بها ما يضىء جانبًا من نواحي الشاعر المتعدّدة، وقد سارعتُ بتلبية طلبه، فصور ما أراد من الرسائل، وبعثها إلى ثانية. والغريب أنى بعد عشرين عامًا من هذا الموقف، احتجتُ إلى بعض الرسائل، وبحثت عنها دون جدوى، ثم حدثتُ الدكتور السعدى بذلك، فقال: إن الصور محفوظة لديه، وتكرم بإرسال نسخة منها، ولولا ذلك لفقدتُ إلى الأبد، ومنها تفويض من الشاعر لى بطبع مؤلفاته نشرًا وشعرًا.

لم يقتصر السعدى على مراسلتى بشأن رسائل شكرى، فقد راسل كثيرًا من الأدباء فى العالم العربى، حتى جمع من الرسائل ما يصلح أن يكون كتابًا، وأذكر أنه راسل الأستاذ فؤاد صروف رئيس تحرير مجلة المقتطف، وكان حينئذ قد ترك القاهرة إلى لبنان، فأمدّه بعدة رسائل تضم أبناء أدبية ونظرات علمية، وهى لاتزال لدى الصديق، كما أنه حين كتب رسالة الماجستير عن (عبد الله النديم) لم يدع أحدًا يعرف اتصاله بأسرته إلا سافر إليه، وأخذ من أخباره ما كان مجهولًا، إذ زار الإسكندرية لذلك عدّة مرات. . . وقد كتب الكثيرون عن النديم كتابة من رجوع إلى آثاره وحدها، ولكن رسالة السعدى تضمنت أشياء جديدة عمل على جمعها، ثم تحرى مدى صوابها، وحازت تقدير لجنة المناقشة بمعهد الدراسات العربية.

وقد زاملت السعدى، إذ كنا مدرسين بكلية اللغة العربية بالقاهرة حينًا من الدهر، فاتضح لى من نشاطه جانب إدارى كنتُ أجهله، لأنه مع إكبابه على التأليف الأدبى كان يد الإدارة فى شئون الامتحانات، وموضع استشارتها فى أحوال الطلاب، ولجان الشباب، وسفر الرحلات، وما زال يجمع بين الإدارة والتدريس والتأليف العلمى جمعًا متوازنًا دقيقًا، وذلك يتطلب منه مزيدًا من الجهد الجاهد، وثقة المحيطين به فى مواهبه تدفعه إلى مواصلة هذا الجهد فى احتفاء.

وقد تنوعت مؤلفات الدكتور السعدى بالكلية، لأن المواد التى قام بتدريسها كانت تقتضى هذا التنوع، ولكن إبداعه الأول كان فى حقل النقد الأدبى، حيث أصدر عدة كتب مهمة تشمل خطوات النقد فى جميع عصوره، وقد فأجاً طلابه بنظام من التأليف فى تاريخ النقد الأدبى القديم لم يألفوه من قبل، حيث درجوا على أن يكون تاريخ النقد وفق توالى العصور، اقتداء بما صنعه رائد التاريخ النقدى فى مصر المرحوم الأستاذ طه أحمد إبراهيم، حيث بدأ بحديث النقد فى العصر الجاهلى، وتابع العصور حتى انتهى إلى العصر العباسى. والحق أن هذا الكتاب التليد لا يزال يحمل بريقه اللامع منهجاً وأسلوباً واستنتاجاً، وقد حاكاه أناسٌ - أو قل إنهم سرقوه - ثم أخذوا يعيرونه، وكأنهم لم يتكثروا عليه كل الاتكاء، وتلك من محن العلم فى العالم العربى، أما الدكتور فرهود فقد درس كتاب الأستاذ طه أحمد إبراهيم، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم رأى أن يؤرخ للنقد على غير مذهبه، فأصدر كتابه (اتجاهات النقد العربى) متحدثاً فى المقدمة منحنى الأستاذ طه أحمد إبراهيم، ثم معقباً بقوله:

«وأن لنا أن نقوم هذا الاتجاه، لأنه يسمح بقيام فواصل بين نقود العصور، وإطلاق القواعد العامة على هذه العصور، مثلما قالوا: إن النقد فى العصر الجاهلى نقدٌ فطرى، وفى عصر صدر الإسلام نقدٌ ذوقى، وفى الدولة الأموية نقدٌ جزئى، واختلف فى الشام عنه فى العراق، وهذه فى تقديرنا تفرقةٌ لا مسوغ لها، فقد تداخلت النقود، وتداخلت العصور الأدبية، ولم تتمايز هذه أو تلك تمايزاً يحتم الفصل بينها، وهذا تفسير الاتجاه إلى تناولنا الموضوعى لهذه الأمور، غير مغفلين ما يفرضه الترتيب الزمنى على حركة التاريخ النقدى.

ووفقاً لهذه الخطة الجديدة كتب الباحثُ فصولاً متتابعة عن اتجاهات النقد العربى، فتحدث عن النقد الاستحسانى، والنقد الانتخابى، والنقد الاجتماعى. والنقد الوصفى، والنقد على سبيل الموازنة، ثم جاء الفصل الأخير ليلم بأهم النظرات النقدية التى تفرقت فيما سبق من الأبواب. والكتابُ بهذا المنحنى الجديد طريف كل الطرافة فى بابهِ.

أما أهمّ كتاب أصدره الدكتور السعدى فى حقل النقد فهو كتاب (قضايا النقد الأدبى الحديث)، وقد أفردتُ له مقالاً خاصاً بتحليله فى مجلة الأديب اللبنانية (أكتوبر سنة ١٩٧٠) وجاء فيه ملخصاً:

«ألمّ الكاتب إماماً موجزاً فى مطلع بحثه بما سبق أن أرخ به الدارسون حركة النقد العربى، ثم اتجه إلى أبواب معاصرة، بدأها بالحديث عن تأثير النقد الأدبى بعلوم النفس والاجتماع والجمال، وختمّ كل فصل بتعقيب يرجع فيه ما يرتضيه من الآراء المتضاربة فى حيدة تامة لا تعرف الانحياز لمذهب معين، ولكى يصل إلى ما يريده من حديث النقد المعاصر عبر ما قبله من الاتجاهات التراثية عبوراً موجزاً، ولكنه مستوعب، ثم تفرغ للبحث فى قضايا التجربة الشعرية والوحدة العضوية، ومُتبعاً بذورها فى كتب النقد القديم، حتى انفسح المجال لرصد التيارات المعاصرة، إذ تحدث عن خليل مطران، وعبد الرحمن شكرى، والعقاد، والمازنى! وقد لاحظتُ فى مقالى بمجلة الأديب أنه قد بَخَسَ مطران حقه حين جعله ينحاز إلى جانب شوقى فى منحاه، لأن اتجاه مطران الإبداعى مسلم به، وهو الرائد الحقيقى لحركة التجديد فى الشعر المعاصر. إذا أردنا أن نقرر الحقيقة دون انحياز».

هذان الكتابان البارزان فى نتاج الدكتور السعدى كانا موضع تعليقات لى فى دروس النقد وأنا أجاوره بمدرجات الكلية، وقد تناقل الطلاب هذه التعليقات، فكنت أنتظر من صديقى أن يتأثر بعض الشيء بموقفى، ولكنه قابلنى مبتسماً ليقول: إنه سيسعد حين أدون له خواطرى النقدية فى بحث خاص ليرجع إليه إذا حانت الطبعة الجديدة للكتاب، وهذا السلوك المطمئن الواصل هو ما يميز الدكتور السعدى دائماً، وما جعل أصدقاءه وزملاءه يعتزون به، وقد جنى كثيراً من الشوك بسبب هذه السماحة، ولكنه لم يثر ثورة الغاضب، إذ طُبع على الهدوء اليقظ، وقد دعى منذ أعوام لإلقاء محاضرة أدبية نقدية عن الشاعر الكبير عبد الرحمن شكرى بالنادى الأدبى فى جدة، وهو أولى الزملاء بالبحث فى موضوع من صميم تخصصه، إذ كتب رسالة الدكتوراه عن الشاعر فعرف عنه أكثر مما يعرف سواه، ولكن - وهذا موضع العجب العجيب - رأيتُه بعد كتابة بحثه المسهب، يدعونى إلى زيارته، ثم يعرض على المحاضرة قبل أن يلقئها، فقد يكون بها ما يصلح أن يكون

موضعاً للنقاش، وقد دهشت جداً لهذا الطلب غير المنتظر، وأخذت المحاضرة وأفدت منها، ولم أر بها غير الجيد الصحيح، وعاتبته على ماصنع، فقال فى ابتسام: وماذا يمنع من أن أطمئن؟ فقلت له: إن اطمئنانك هذا مع وثوق الناس بك قد حيرنى.

وقد كان الدكتور محمد السعدى عميدا لكلية اللغة العربية بالمنصورة حين أنشئت، فلاقى تأسيسها العلمى والإدارى والبنائى جهداً كبيراً قام بتدليله، على نحو مرهق شاق، ثم ترقى إلى منصب أعلى، وجئت عميداً للكلمة من بعده، فرأيت أن أقيم له حفلة تكريم اعترافاً بجهدته فى إنشاء الكلية وسيرها هذا المسير الصحيح، وقام المتحدثون فأنثوا عليه بما هو أهله، وكانت المفاجأة فى الكلمة الختامية التى ألقاها الدكتور السعدى، حيث ذكر أسماء الزملاء والإداريين والموظفين الذين عاونوه جميعاً جميعاً، وأحصى لكل فرد جهده الذى قام به، وكأنه كان أثناء عمله عميداً يسجل خطوات من يقعون تحت إدارته تسجيلاً واعياً، وقال فى تواضع: إن الشكر لهؤلاء جميعاً، وقد خرج المستمعون دهشين لهذه الذاكرة التى وعت كل شىء، ولهذا الاعتراف المثلث بكل جهد مبذول، وكم رأينا من رؤساء لم يعملوا شيئاً ارتكائاً على جهود مرءوسيه، ثم هم بعد ذلك يتلمسُون الهفوات التافهة لعقابهم، وكأن الرياضة لاتتم إلا بالاستعلاء وترصد وسائل العقاب.

وفى اجتماعات اللجان الدائمة لترقية الأساتذة بجامعة الأزهر، رأيت من حزم الدكتور فرهود ما أعجبنى، لأن هذا الحزم الدقيق لم يمنع نظرة الرحمة المتسامحة لمن قعدت بهم بعد ظروفهم الصحية فى مختتم العمر، عن الإجابة التامة، فكان الدكتور يقف فى صف هؤلاء الذين سيودعون عملهم عن قريب، قائلاً: إنهم كافحوا قدر ما يستطيعون، ولهم جهدهم العلمى الذى يؤيده نشاطهم الممتد عبر السنوات الماضية، وهو رأى قد يجد المعارض، ولكنى أسجله كما رأيت. مع ملاحظة أن النتائج يكون دائماً فى مستوى مقبول، ولا يهبط إلى درجة المؤاخذة، فهنا يكون الحسم الدقيق.

هذه خواطر أكتبها عن صديقى الكريم، راجياً أن أجد مجالاً آخر للحديث عنه كما أريد بإسهاب.

الشيخ محمد أبو زهرة

للإمام الفقيه الثبت الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة، قوة لا تُغلب، فهو مع فقهه الصائب، وعلمه الغزير ذو حجاج وجدل، يقتحمُ المعارك القلمية في الصحف، والمصاومات اللسانية في الندوات، فيسيطر على الموقف بدامغ الحجة، وواضح البرهان، لأنّ الرجل ممتلئٌ بأصول الشريعة، بصيرٌ بتيارات العصر ودوافعه.. عالمٌ بما يحوكه المغرضون من مكاييد، ثم هو صريحٌ لا يُمارى ولا يدارى، لذلك كان موضعَ الهيبة والخشية يحذرُه معارضوه، ويؤيده ذوو وجهته في حب خالص.

عُرِفَ عنه معارضته لما يسمّى بالاشتراكية، حين زعمَ فريقٌ أنّها من أصول الإسلام، فنادى بأن الإسلام شرعة سماوية فوق المذاهب الوضعية التي تتبدل وتتحوّل، وتظهر عوارها الصارخ عند التطبيق، وساء ذلك صاحب الجبروت في مصر، فدعاه، لاليناقشه بالمنطق الواضح، ولكن ليصيح به، أنت يا أبا زهرة تؤلّف الكتب، وتبيعها بالثمن الباهظ، وتعيش عيش المترفين، ثم تصيح في الناس مندداً بالاشتراكية غافلاً عن حقوق الكادحين والفقراء، وتقولُ إنك عالم من علماء الإسلام! وكان المتحدث ينتظر من الرجل أن يعتذر متراجعاً، ولكنه قال له: أنا أولّف الكتب داعياً إلى الله، يقرؤها المسلمون في جنبات الأرض، خارج مصر وداخلها، ويسارعون إلى المناذاة بإعادة طبعها حين تنفذُ على وجه سريع فاستجيب، ثم أدفعُ الضرائب للدولة، وأعطى الزكاة للمستحق، وذلك كلّه مباح في شريعة الإسلام، بل إنه فرضٌ على من يقدرُ عليه من العلماء، ولكنكم تصدرون الكتب مؤيدةً سياساتكم، وتحمل الدولة نفقاتها الكثيرة، وتمتلىء بها

مخازنُ المكاتب الحكومية، وتوزَّع على الطلاب وغير الطلاب، فلا يقرؤها أحد، فمن هو الصحيح: مَنْ يكتبُ لنفع المسلمين فيسعون لقراءة ماكتب، أم من يؤلف وتطبع الدولة مؤلفاته، ثم تُركن على الرفوف، هذا هو الواقع المشاهد، فأين الجواب؟

وكان المتحدث الخطير في شغلٍ شاغلٍ من نكسةٍ نزلت به، فأثر المهادنة، وخرجَ الرجل الكبير مرفوع الرأس كعادته، دونَ أن يشغل باله بما كان.

أول لقاء:

كان من عادة الأستاذ أبي زهرة أن يستقلَّ مترو مصر الجديدة في رواحه وغدوه، وكنتُ أراه دائما يجلس مع نفرٍ من حواربيه في وقارٍ وأناة، فإذا تحدث وجدَّ الإنصات التام، ولو جرى الحديث في العموميات المتداولة، وفي يومٍ ما وجدتُ الرجل وحده، والمكان خاليا بجواره، فسارعتُ إلى الجلوس معه، وبدأت الحديث قائلاً:

أنا أشتاقُ هذا المجلس من زمن بعيد، لأنني أحد قرّائك المتابعين، فقال في ابتسام: أهلاً وسهلاً، وماذا لديك حول ما تقرأ؟

قلت، لقد وقعَ في يدي كتاب (مالك، تجارب حياة) للأستاذ أمين الخولي، وقد سبق أن أشرتُ إلى المؤلف في بعض كتاباتك مقرظاً، ولكنه في هذا الكتاب يخالفك مندداً بالدراسات العليا في كلية الحقوق، ولا أدري وجهة نظره، لأنه قال ما يحتاجُ إلى إفاضة بدون أن يُفيض.

فقال الشيخ: لقد قرأتُ ماكتب، إذ عرَّضه بعض الطلاب عليّ، وذلك أتى في كتاب (أحمد بن حنبل) نقلتُ قول بعض العلماء: «لو قالَ رجلٌ إن أحمد بن حنبل من أهل الجنة ما عُنّف في ذلك، ذلك أنه لو قصد رجل خراسان ونواحيها، لقالوا إن ابن حنبل رجل صالح، وكذلك لو قصد العراق ونواحيها لقالوا: ابن حنبل رجلٌ صالح، وكذلك لو قصد الشام ونواحيها لقالوا: إن ابن حنبل رجل صالح، فهذا إجماعٌ وهو قولُ فقيه محدثٍ معاصرٍ لأحمد فيه، يرى إجماعَ الأقطار

الإسلامية المتناثية على أن الإمام رجل صالح، وبه تقوم الحجة على صلاح هذا الرجل».

قلتُ هذا في مظنة الإجماع وأريد به الرأي العام الإسلامي في عالم من علماء الإسلام، كما تحدّث عنه زميلٌ معاصر، ولكن الأستاذ أمين لم يفتن إلى ما أريد، وأخذ يتحدّث عن الإجماع الأصولي، كأثنى أعنيه، مع أن السياق واضح، والسنة الخلق أعلام الحق، ولن يجتمع المسلمون في الشرق والغرب على إكبار إمامٍ فقيهٍ محدّثٍ شجاع، وهو غير جدير بهذه الثقة، فماذا في ذلك؟ وما المذلة التي تلحق الدراسات العليا في الجامعة لو قلنا: إن إجماعاً من الرأي العام تقرّر بشأن ابن حنبل ومكانته العالية؟ ولكن الأستاذ أمين يتكلم بما يشاء.

ولا أدري لماذا قلتُ له إن لي مؤلفاً عن الإمام أحمد بن حنبل أود أن تتفضّل بقراءة شيء منه، قال في هدوء: مرحّباً، ثم فارقتُه في شوقٍ حين بلغ (المترو) غايته، وبادرتُ بإرسال الكتاب إليه سريعاً بالبريد.

في احتفال الشبان المسلمين:

لم يتح لي أن أديم اتصالي بالشيخ الكبير، ولكنني بعد عامين من هذا اللقاء العاجل سارعتُ إلى حضور حفلٍ بجمعية الشبان المسلمين تأبيناً لبعض الراحلين من العلماء، فرأيتُ الأستاذ هناك، وانتهزتُ الفرصة للجلوس معه، فذكرته بلقاء (المترو) وسألته عن كتابي الذي أرسلته بالبريد إليه، فقال: إنه قرأ بعضاً منه، وفاته أن يكتب إليّ في حينه، ثم قال:

لقد كثرت الكتابة عن الأعلام الأربعة من فقهاء الإسلام في هذا العصر، وهذا شيء جميل لأشكّ في نفعه، ولكن هناك من الأعلام المماثلين من لم يحظوا، ولو بمقال واحد في المجلات العلمية، ولديك كتاب (طبقات الفقهاء)، للسبكي، فإنه بأجزائه العشرة الحافلة بسير الفقهاء مرجعٌ تاريخي وفقيهي لعلماء أفاضل، منهم من يرتفع إلى منزلة الأئمة الأربعة، ويجب أن نبحث عن هؤلاء لنقدمهم إلى القراء، وقد كتبتُ أنا عن الفقهاء الكبار، لأنني أرصد الاتجاه الفقهي في مدارسهم

الأولى لدى أئمة المذاهب الفقهية، فكان البحث الفقهي هدفي الأول، وعليكم أن تبحثوا عن غيرهم في كتب الطبقات المختلفة، ليستفيد الجمهور مما تكتبون حين يطالع الجديد.

ثم استطرّد الشيخ يقول: لقد ذكرتُ أن كتاب طبقات الفقهاء للسبكي مرجع تاريخي فقهي، وأؤكد ذلك ثانية؛ لأنّ المؤلف الكبير كان لا يقتصرُ على تدوين حياة الفقيه، بل يلمّ بأرائه الفقهية التي اجتهد فيها، وقد يكونُ من هذه الآراء ما هو جديدٌ في بابه، ودراسته حينئذٍ أوجب وألزم..

موقف رابع:

ودارت الأيام، وانقطعَ لقائي بالشيخ، حتى لقيتُ ذات يوم عالماً كبيراً من أفاضل العلماء في سوريا الشقيقة، فقال لي - وقد اطّرد الحديث في شجون مختلفة: حيّاً الله الإمام أبا زهرة، لقد دُعينا إلى ندوة إسلامية كبرى بإحدى العواصم العربيّة التي اشتهرت بالثورية، وكان المنتدون من كبار العلماء في العالم الإسلامي، وفوجئنا يوم افتتاح الندوة بحضور رئيس الدولة ليقول إنه دعا إلى هذه الندوة ليقرر العلماء أن الاشتراكية هي المذهب الإسلامي، وليصدرُوا قرآريهم في هذا الاتجاه، قال الرئيس ذلك، فتكدّرت النفوس، وعبست الوجوه، ولكنّ الشيخ أبا زهرة حيّاه الله، طلب الكلمة، واتّجه إلى المنبر ليقول:

نحن علماء الإسلام وفقهاؤه، وقد جئنا إلى هذه الندوة، لنقول كلمة الإسلام كما نراها نحن، لا كما يراها السياسيون، ومن واجب رجال السياسة أن يستمعوا للعلماء، وأن يعرفوا أنّهم متخصصون فاهمون، لاتخذعهم البوارق المغرية، وقد درسوا ما يسمى بالاشتراكية، فأروا الإسلام أعلى قدرًا، وأسمى اتّجاهًا من أن ينحصر في نطاقها، وسيصدرُ المجتمعون رأيهم كما يعتقدون، لا كما يريد رجال السياسة، فهم أولو الأمر في هذا المجال، ثم توجه الشيخ إلى زملائه قائلاً: هل فيكم من يخالف؟ فرأى الإجماع منعقدًا على تأييده، فقال: الحمد لله، ولم تستمر الندوة في انعقادها أسبوعًا كما كان المقرر لها من قبل، بل كان حفل الاستقبال هو حفل الختام.

فى مجمع البحوث الإسلامية :

كنتُ متجهًا إلى زيارة أستاذى الدكتور عبد الحليم محمود، وكان حينئذ أمينًا عاما لمجمع البحوث الإسلامية، فصادفتُ الأستاذ الكبير أبا زهرة يجلس معهُ، وقد تفضلَ فرحَّب بى مشجعا، وكنتُ فى هذه الآونة مشغولا بكتابة بحث عن الخطابة فى العصر النبوى، فقلتُ للشيخ: أنا أعرفُ أن لك كتابًا قيما فى تاريخ الخطابة وأساليبها المختلفة، وعجبتُ كيف انتقلتَ من الفقه إلى الأدب.

فرايتُ أبا زهرة يتنهد، فأشفقتُ أن أكونَ آلتَهُ حيث لا أود، ثم استمعتُ إليه يقول: يا بنى إن الثقافةَ الإسلامية جزء لا يتجزأ، وكَم لا ينفصل، فلا بد لدارس الفقه والحديث والتفسير أن يدرسَ علومَ الأدب، لأنَّهُ لا يستطيع التعبير عن نفسه إلا إذا رزقَ البيان الناصع، والأئمة الكبار من الفقهاء كانوا يملكونَ نعمة البيان، فاستطاعوا أن يضعوا المؤلفات القيمة، وما انحطَّت كتب الفقه فى العصور المتأخرة إلا لأنها كُتبت بأقلامٍ لم تذوقِ البيان العربى، فجاء أكثرها شبيهاً بالأحاجى والألغاز، لقد كانت كلية الحقوق تُدرس مادة الخطابة لعدة سنوات، فأخرجت من كبار القضاة والمحامين والمشرعين من استطاعوا أن يكونوا زعماء تشريع وسياسة وأدب، وعلى كلية الشريعة وكلية أصول الدين بالأزهر ألا تُغفلَ تدريس البيان العربى، ثم اتجه إلى الدكتور عبد الحليم فقال له: ماذا ترى ياسيدنا؟ فقال الدكتور عبد الحليم: لقد كنتُ عميداً لكلية أصول الدين وأستاذاً بها من قبل، ولحظتُ أن الطلاب فى حاجةٍ إلى قوة الأسلوب، ولا بد من الإلمام بأصول البلاغة، لأن رسالتهم تقوم على الأداء، ولا أداء بدون بيان، قال الشيخ: فادعُ إذن إلى ذلك يا أخى! ثم استأذن منصرفاً...

فى الندوات العلمية :

الآثار التى كتبها الأستاذ أبو زهرة أكثر من أن تحصر، فقد ترك من المؤلفات الضخمة فى التشريع والتاريخ الإسلامى والعقيدة والمذاهب الإسلامية والقرآن الكريم، وحياة خاتم النبیین، وسير الفقهاء مايملاً مكتبة فسيحة، وكان له مع ذلك

كله آثار صوتية فى الندوات العلمية، لو جمع مضمونها فى مؤلفات لبلغت عددًا كبيرًا، إذ كان يحرص على أن يقول كلمة الإسلام جهرة مدوية، فيتحول الموقف إلى النقيض .

عندما ظهر فيلم «ظهور الإسلام» المأخوذ من كتاب الدكتور طه حسين المسمى «بالوعد الحق» تبرع كثير من الكتاب بالدعوة إلى تمثيل العصر النبوى على الشاشة، باعتبارها عامل تأثير فى النفوس، وقامت ندوة أدبية تجبذ هذا الاتجاه، ولكن الأستاذ أبا زهرة سعى إلى الندوة مستمعًا، لأن أحدًا لم يجرؤ على دعوته متكلمًا كيلا يفاجأ القوم بما لا يودون، ثم طلب الكلمة، فرحب الجمهور، واضطر منظم الندوة أن يدعو الشيخ للكلام، فوقف مُفسرًا وجوه الحاضرين، ثم قال إن الذين يتحدثون عن أثر السينما فى الدعاية للإسلام بدليل انكباب الجمهور على مشاهدة فيلم «ظهور الإسلام» لم يوقفوا فيما يدعون، لأننا نعلم أن هذا الفيلم لم يزد المؤمن إيمانًا فوق إيمانه، ولم يردع فاسقًا عن غيّه، ولم يدخل أحدًا من ذوى الأديان الأخرى إلى حظيرة الإسلام، فهل نفدت كل وجوده الدعايات للإسلام ولم يبق إلا تمثيل أحداث العصر النبوى بأعلام من صحابة رسول الله؟! وهل يُعقل أن يقوم ممثل اليوم بتمثيل دور بلال حين عذب فى ذات الله، ثم يجده المشاهد فى رواية أخرى يمثل دور ماجن خليج! وهل يُعقل أن تضع ممثلة لبعض الصحابيات دلائل المكياج فى وجهها كما أخبرنى بعض من شاهدوا الفيلم ثم نزع أنها تمثل صحابية شهيدة ذهبت روحها فداءً لدينها الحبيب! وماذا نصنع إذا وجدنا هذه الشهيدة فى فيلم آخر تأتى بما ينكره الإسلام فى بعض المشاهد الداعرة أليست هذه إساءة واضحة للصحابيات! وجال الأستاذ فى هذا المجال بسطوة خارقة نعهدا فى براهينه، فخرج المجتمعون وأكثرهم فى اتجاهه .

وفى ندوة أخرى دار الحديث فيها عن حرية المرأة، فوجئ المجتمعون بحضور أبى زهرة، وقد طلب الكلمة ليقول كلمته معقبًا على من يمنع التعدد فى الزوجات ويرى تقييد الطلاق، وما بدأ الحديث حتى مال بالرأى المتفق عليه إلى وجهة مخالفة، وصاح بالقوم، أنتم تريدون حرية للمرأة المسلمة مثل حرية المرأة

الأوربية، ونحن نرىَ قوانينَ التشريع في ألمانيا وإيطاليا تتجه وجهةً إسلامية، فتجيز الطلاق لدوافعه المعقولة، وتُبيحُ التعددَ لضرورته الملزمة! فهل فقدت المرأة الإيطالية أو الزوجة الألمانية حريتها حين اتجه قانون البلاد إلى ما يتجه إليه الإسلام؟ إن المرأة في منزلها ذات حرية، ولكن الذين يطالبون باحتذاء الغرب، لا يرون الحرية إلا في تمزق الأسرة وتأكيد أسباب الفرقة والانفصام!

هاتان ندوتان، حضرتهما، واستمعت إلى كل ما قيل بهما، ورأيت انطباعات الجمهور المؤمن بعد حديث أبي زهرة تنطق بتأييد الشيخ، وتهجين من يرى غير وجهته، وكم لهاتين الندوتين من مثيلات مُجلجلة بصوت أبي زهرة، إذ كان مطمح الأنظار، وموضع الانجذاب.

الدكتور محمد حسين الذهبي

حزنت جداً لمصرعه الظالم، فقد كان نبيل الخلق، غزير المادة، طاهر الطوية، يؤدى واجبه العلمى بين طلابه أحسن أداء، فهو يفسح صدره لكل نقاش، ويتقبل النقد مهما قسأ، ويعبر عن وجهة نظره فى هدوء غير متكلف، وكان مع وفرة علمه فى ميدان تخصصه الذى برع فيه، كثير الاستماع لمن يحدثه فى ميدان نبوغه، وإن كان من تلاميذه الصغار، يستمع وكأنه يفيد مما يسمع، فإذا رأى أن يصحح الخطأ، قدّمه فى ابتسام، وكأنه يتساءل. عرف زملاؤه وتلاميذه هذا الصّدْرَ الفسيح فى تكوينه، فأجمعوا على حبه، وقلما يجمع المتنافسون على حبّ من يزاملهم فى اتجاههم العلمى، هذا إلى تواضع يكاد يصل إلى درجة الانكسار فى معاملة قاصديه، وقد كان وزيراً يقف أمام الباب فى وزارة الخيرات ليقرأ بنفسه عريضةً يقدمها سائلٌ محتاج، وأراد بعض المنافقين من مرءوسيه أن يبلغه فى تملق أنه أرفع من أن يقف مع طالب حاجة هذا الأمد الطويل، فقال له فى هدوء يقرب من الاحتجاج: دعى، فكلنا طلاب حاجات، فإذا قلتُ إنى حزنتُ كثيراً كثيراً لمصرعه الظالم، فأنا صادقٌ صادقٌ.

اللقاء الأول:

وقد قابلتُ الدكتور الذهبى ثلاث مرات فحسب! وهى لقاءات علمية لم تخرج عن حدّ السؤال والجواب والرد والاعتراض فى بساطة يعرفها أصدقاء الرجل، فقد كنتُ أوّلُ كتاباً عن (خطوات التفسير البيانى) أعرض فيه جهودَ البيانيين من المفسرين الذين تناولوا كتاب الله من الناحية البلاغية، وفى مطالعاتى المتكررة

عرفتُ من بعض الكاتبيين أن للزمخشري نظيراً في منحاه البياني، هو ابن عطية الأندلسي، صاحب التفسير المسمّى (بالمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) فرأيت من مستلزمات البحث أن أقرأ هذا التفسير، وأدرس اتجاهه البياني، وكان لا يزال مخطوطاً، وبه أجزاء متفرقة في دار الكتب المصرية، فحاولتُ الاطلاع عليها أكثر من مرة، فلم أجدُ شيئاً بالدار، إذ تعللوا بتمحلات لا مبررَ لها، فتذكرتُ أن الأستاذ الدكتور محمد حسين الذهبي كتَبَ عن هذا التفسير في مؤلفه الكبير (التفسير والمفسرون)، وقد خصّه بباب منفرد، فعلمتُ موعدَ حضوره بالكلية، وذهبتُ إلى لقائه، وقلت: إنى فى حاجة إلى معرفة اتجاه ابن عطية فى تفسيره القرآنى، وقد اتصلتُ بدار الكتب بدون جدوى، وقرأتُ ما جاء فى كتابك القيم، فهرعتُ إلى الاستزادة منك، فسألنى عما أقومُ به من تأليف فى هذا المجال، فقلت: إنى أضع كتاباً أرسدُ فيه خطوات التفسير البيانى على مرّ العصور، وقد قرأتُ أن ابن عطية يسهم فى هذا المجال بنصيب وافر، وأنه يُقرنُ بالزمخشري فى اتجاهه البيانى! فصمتَ الرجل قليلاً، وقال: الذى أعرفه من قراءتى لبعض أجزاء التفسير المخطوطة بدار الكتب، أنّ الناحية البلاغية فيه ضعيفة جداً، وأنه لا يقرن بالزمخشري فى هذا المجال. قد يكون المفسرُ موضحاً لآيات التشبيه والاستعارة والمجاز فى النص القرآنى، ولا بد أن يفعل، ولكنه لا يزيد فى ذلك عما يذكره النيسابورى، أو الألوسى، أو الفخر الرازى، والذين يقرنون بالزمخشري فى هذا المجال قد ظلموه، فإذا كنت قد خصصت كتابك للتفسير البيانى وحده فلن تجد عنده شيئاً ذا بال متميز!

ورأيتُ المجال يسمح بالحديث عن كتاب الدكتور عن التفسير والمفسرين بأجزائه الثلاثة الكبار، فقلتُ: إن أستاذنا قد وضع أول كتاب يؤرِّخ التفسير القرآنى على نحو جديد معاصر، إذ لم يسبقه فى هذا المجال قدر اطلاعى المحدود من أبناء العربية كاتبٌ معاصر! فنظر الأستاذ متفرباً فى وجهى، ثم قال: أصدقك الرأى يا أخى أنى غير راضٍ عما كتبت، فقد كنتُ أؤثر أن أكتبَ عن عصر واحد من عصور التفسير، لأشبعَ القول بما يرضى حاجة نفسى، ولكن الرسالة العلمية التى

وافق مجلس الكلية على عنوانها قد شملت تفسير القرآن جميعه، فجعلتُ أسبَحُ في محيط لا أعرف أوله من منتهاه، وكان الجهد شاقا في قراءة المخطوطات المتآكلة، واستيفاء المصادر البعيدة، مما أوقعتني طيلة إعداد الرسالة في تأزم مستمر، وأعتقد أني قمت بالمستطاع فحسب لابما يجب أن أقوم به .

وتابع الدكتور الذهبي حديثه قائلا: لقد علمت أن المستشرق المجريّ الأستاذ (جولد زهير) أصدر بالألمانية كتاباً عن تاريخ التفسير، فسعيتُ حتى عرفت أن نسخة منه بجامعة فؤاد، وهنأ أخذتُ ألح على أساتذتي بالكلية ممن يعرفون الألمانية أن يتكرموا بترجمة الفهرس فقط، لأرى اتجاه المستشرق في التأليف، فقد يفيدني، فاعتذروا عن هذا العمل الهين، ولو وَقَعَ في يدي هذا الفهرس لنفعني، إمّا متابعة أو معارضة، ثم تُرجم الكتاب بعد أن أعددتُ الرسالة، وأقبلت على قراءته، فلم أسترحُ لكثير مما جاء به، ولو تُرجم الكتاب جميعه وأنا أضع الرسالة لتتبعته بالنقد المنصف.

قلت: ولكنني أتذكر أنك عددتَ الجزء الأول من كتاب (جولد زهير) من مراجعك، قال: أنت على صواب، فقد ظهر هذا الجزء بعد مناقشة الرسالة، وقبل طبع الكتاب، فجعلته مرجعاً لمن يريد الاستفادة، وحاولتُ أن أضيف إلى الرسالة فقرات تتعلق به في موضعين أو ثلاثة من الرسالة بعد مناقشتها ثم رأيت أن العمل يتطلب كتاباً مستقلا، وأذكر أن مترجم الكتاب لأول مرة، وهو الدكتور على حسن عبد القادر، ومترجمه للمرة الثانية وهو الدكتور عبد الحلیم النجار، وكلاهما من نابغى الأزهر، قد علقا على الآراء الشاذة بإيجاز، والأمر يتطلب الاستيفاء . . وهكذا دار الحديث .

اللقاء الثاني:

بعد ظهور كتابي (خطوات التفسير البياني) قابلني أخى الأستاذ الدكتور الحسيني هاشم رحمه الله، وقال لى: إن أستاذنا الدكتور محمد حسين الذهبي يبحث عنك، وقد طلب منى أن أخبرك بضرورة لقائه، فلا تتأخر.

وكنْتُ مشوقاً للقاء الرجل، ولكنني أخذتُ أسائلُ نفسي عن رغبة الأستاذ وبعائها، فقلتُ: ربّما يكون قد تفضل بقراءة الكتاب، وفيه نقدٌ صادق لبعض آرائه، فأراد أن يناقشني فيما كتبت، وسعيتُ إلى استيعاب ما نقدتُ به الأستاذ، وفحواه أن المؤلفُ أفرد فصلاً خاصاً عمّا سمّاه (التفسير الإلحادي) يدور حول آراء في التفسير لأستاذين كبيرين من علماء الأزهر، هما الشيخ حامد محسن شيخ كلية اللغة العربية الأسبق، وعضو هيئة كبار العلماء، والشيخ عبد المتعال الصعدي، من كبار علماء الأزهر، وأساتذة كلية اللغة العربية، وقد بدأ حديثه بقوله: «يبنى الإسلام من زمن بعيدٍ بأناس يكيدون له، ويعملون على هدمه، بكل ما يستطيعون من وسائل الكيد، وطرق الهدم... منى الإسلام بهذا في أيامه الأولى، ومنى بمثيله في أحدث عصوره، فظهر في هذا العصر أشخاص يتأولون القرآن على غير تأويله، ويلوونه إلى ما يوافق شهواتهم، ويقضى حاجات نفوسهم، فأدخلوا في تفسير القرآن آراءً سخيفة، ومزاعم منبوذة».

وقد استهولتُ أن يُقال هذا الكلام في عالمين كبيرين لهما وزنهما العلمي في الدوائر الأزهرية، وإن كُتِبَ ما يخالف التفسير المتعارف، فالأستاذ حامد محسن قد اشتط في تأويل آيات الرجم بالكواكب، وفي تأويل قصة أيوب اشتطاً ظاهراً التعسف، والرد عليه لا يكون بجعله بين من يكيدون للإسلام ويعملون على هدمه، والأستاذ الصعدي قد اشتط حين وقف أمام آيات الأحكام في الزنى والسرقه، فقال الأمر في الفعل ليس للوجوب الدائم، بل يرجعُ إلى الحاكم، تارة يراه واجباً، وتارة يراه مندوباً ينتقل منه إلى عقاب آخر، هذان العالمان مجتهدان وقد أضلّاً طريق الصواب فيما انتحياه فكان الأوفق بالدكتور الذهبي ألا يجعلهما مُلحدين، وهذا ما عارضتُ به الأستاذ الذهبي حين قلت (في ص ٣٢٨ من كتاب خطوات التفسير البياني):

«وليت شعري إذا جاز لبعض المستشرقين ومن يتعاطون التفسير من غير أبناء الإسلام، أن يُوصموا بالكيد للإسلام، والعمل على هدمه، شفاءً لإحنتهم المريضة أيجوز أن يكون شيخ كلية اللغة العربية، ومدير التفتيش بالأزهر، وعضو جماعة

كبار العلماء أحد هؤلاء! والرجلُ لم يزد على أن اجتهد، أخطأ أم أصاب، لوصحَّ ما قاله الأستاذ الذهبي ما وجدَّ الأستاذ مكاناً جهيراً له في أعرق جامعات الإسلام، بل ما وجدَّ كُبرى المجلات الإسلامية تُوسع له من صفحاتها أفسح مكان، إنَّ فضيلة الأستاذ الذهبي رجل غيور بدون شك، ولكنه اشتطَّ فاندفع، فضع من يده الزمام».

هذا ما قلته عن الدكتور الذهبي في كتاب طَبَعَهُ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، وتداوله الطُلابُ والأساتذة، وجاء خبره للأستاذ الذهبي، فقرأ ما سَطَّرته، ولا بدَّ أنه يريد أن يناقشني فيما كتبتُ، ففكرتُ فيما يجب أن أقوله إذا دار النقاش حول هذه القضية، وسارعتُ إلى لقاء الشيخ الكبير، فرأيتُه ينهضُ واقفاً حين وقع نظره على، وبيتسّمُ ماذا يده الكريمة ويقول في مودة: اجلسُ يارجب، لقد علّمتني، لقد علّمتني! قلت: معاذ الله ياسيدي فنحنُ جميعاً تلاميذك، قال: قرأت كتابك من ألفه إلى يائه، لأنه تحدث عن ناحية في التفسير لم تكن موضع اهتمامي الأوّل، وحين وصلتُ إلى ما قلته عن التفسير الإلحادي عرفتُ أنني أخطأت، لقد كنتُ مندفعاً في عهد الشباب يا أخي، ولكن ألا تعلم أن معنى الإلحاد هو الميل، وإذن فقد وصفتُ الرجلين بأنهما مالا ولم يعتدلا: قلتُ في عجلة، معنى الإلحاد لغوياً هو الميل، ومعناه اصطلاحاً المروق والكفر! قال: أعلم هذا، ولكنّي أردتُ أن أخفف عن نفسي، فأعترف أن الحق معك! وربتَ كتفى في مودة، فكان مجلسه مضرب المثل في صدق الاعتراف، وفي الإقرار بالحق بدون ملاحاة!

اللقاء الثالث:

ذهبتُ إلى مكتب أستاذي الجليل الدكتور كامل الخولي عميد كلية اللغة العربية ذات صباح، فوجدته يجلس مع الدكتور الذهبي مُتَحاورين، فظننتُ الحديثُ خاصاً، وهممتُ بالرجوع، ولكنَّ الرجلين معاً قد صاحوا بدعوتي في صوت واحد، فأقبلتُ لأجد الدكتور الذهبي يقول: أنت تفر منّي، لأنك تعرف أنني

سأعاتبك، قلت: إن عتاب الدكتور نصح وإرشاد وتوجيه! فقال الدكتور الذهبي موجهاً الحديث للدكتور الخولي: إن الدكتور رجب متأثر بما قال الدكتور أحمد أمين في كعب الأخبار، فقد قرأتُ له مقالاً ينزل به عن قدره، وكعب في رأيي مسلم صادق، والذين يتشككون في إسلامه لا يملكون الدليل، وقد بسطتُ هذا الموضوع في كتابي عن التفسير، وقرأه رجب، ولكنه لم يقتنع به كما أرى في اتجاهه!

قلت: ياسيدي، إن صاحب المنار السيد محمد رشيد رضا لا الدكتور أحمد أمين وحده قد هاجم كعباً ووضعهُ دون موضعه لديك بكثير. قال: أعرف هذا، ولكنَّ كعباً قد روى عنه ابن عباس، وأبو هريرة، وروى عنه الإمام مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، ولولا ثقة هؤلاء الكبار من الصحابة، والأجلاء من رجال الحديث ورواته ما رووا عنه شيئاً! والقصة التي تقولُ إنَّ كعباً اشترك في مؤامرة عمر بن الخطاب التي انتهت بمصرع الفاروق لا تثبتُ أمام النقد، إذ كيف يُعقل أن يقول كعبٌ لعمر ستموت بعد ثلاثة أيام، ثم يُصرع بيد الغدر في الوقت الذي حدده ولا يتجه الاتهام حينئذ إليه؟ لو صحَّ ذلك لقدم كعبٌ إلى المحاكمة مع أبي لؤلؤة المجوسي والمرزبان ومن اشتركوا في التدبير، ولكن أحداً لم يُوجه إليه ملاماً، أما السيد رشيد فعلى جلاله علمه فهو رجلٌ يؤخذ منه ويرد، وقد كتب الأستاذ الدجوى رحمه الله تفنيدياً لما قال السيد محمد رشيد رضا وإن لم يصرح باسمه. . . راجعُ هذه القضية من جديد يارجب. فأصغيتُ بدون اعتراض، وأذكر أن الدكتور الخولي قال للشيخ الذهبي مداعباً تناقشه في تاريخ التفسير وهو مجالٌ تخصصك فيسكت، ولكن لو ناقشته في الأدب والنقد والبلاغة لما سكت!

قال الذهبي: أعرف أنه سكت تأديباً فقط، وعنده ما يقوله. . .

ثم تولَّى الدكتور وزارة الأوقاف، ولاقى صعوبات شاقة في الوقوف أمام التيارات الوصوليَّة، وقد اعترف علناً في مجلس الشعب أنه غير مبتهج بمنصبه،

وأنه يتمسك بموقفه مؤثراً أن يرجع إلى مكانه العلمى بجامعة الأزهر، وقد تحقق له ما يرتجيه، ولكن أعوان الشر تربصوا به، فنال الشهادة مأجوراً مُثاباً، فصار ممن يستبشرون بنعمة من الله وفضله، فرحين بما آتاهم الله من فضله العميم.

الدكتور زكي مبارك

حين انتقل الدكتور زكى مبارك إلى رحمة الله نشرت بمجلة الرسالة ترجمة أمينة لحياته، ولم أغفل في ختامها ما اصطدم به فى خريف عمره من تهاون واستخفاف، بعد أن أسهبت إسهاباً شاملاً فى تقدير مؤلفاته، وتشخيص سماته الأدبية، ولم يكن فى ذلك ملامة تلحق مؤرخاً منصفاً يحاول أن يقدم للتاريخ صفحة صادقة عن راحل كريم، وقد شاء صاحب الرسالة أن يلحق اسمى فى رأس المقال بهذه العبارة (بقلم صديقه وتلميذه) وقد سألته عن ذلك فقال: ليطمئن القارئ إلى أن الذى يتحدث قريب غير بعيد.

وما كاد هذا البحث يُقرأ، حتى تلقيت نقداً متعدداً من زملاء أفاضل يقدرّون الدكتور، ويرون إشارتى إلى حالته الأخيرة إساءةً إلى تاريخه، مع أنه تحدث عنها بنفسه، وسجلها فى ديوان ألحان الخلود، مكرراً ملحاً بدون استتار، وقد تتابع النقد قارصاً موجعاً، حتى كدت آسف على ما قدّمت، وزاد فى حيرتى المؤلمة أن العقل الباطن صور لى الدكتور فى حلم خاطف يلومنى لوماً صارخاً، فانتبهت من النوم وأنا أقاسى مرارة التائب، فتذكرتُ سالفةً سابقةً هى أنى قبل وفاته بأشهر قليلة تحدثت على صفحات الرسالة عمّا طرأ على أسلوب الدكتور زكى مبارك من انحراف ملموس، بحيث انقطعت الصلة بينه وبين ما كان يُدبج من قبل، وقد ثار الدكتور على ما كتبت، واتهمنى بمعاملة خصومه، وتحدث إلى صديقى الأستاذ محمد خليفة الجعلى، وهو من قرية بريف الدقهلية، ساخطاً على ما كتبت، وكان الأستاذ الجعلى زميلاً له فى تحرير جريدة البلاغ.

رثاء شعري:

وقد شملني أسىً على رحيل الدكتور، فقلتُ في نفسي: لقد كنت موضوعياً في مقال الرسالة، لأنك سلكت مسلك المؤرخ، والمؤرخ ينقل عما شاهد بدون تحييز، وهذه شجونك تدفعك إلى رثاء شعري يؤكد محاسن الكاتب الكبير، فلا بد أن تشفى فؤادك بقصيدة تصوّر حسرة الأدب، ولوعة الأصدقاء على فقد هذا الأديب المطبوع، ورأيت الشعر ينحدر على لساني سهلاً طيِّعاً، فكان مما قلت:

زكى رحلت فاتجهت عيون تُريد البدرَ في ليل المحاقِ
هفت لمؤلفاتك تجتليها لتلمس العزاء عن الفراقِ
وأقسم ما تسلت باطلاع ولكن زادها برح اشتياقِ
تري الأسلوب كالمعنى رقيقاً فتندب صاحب الغرِّ الرقاقِ
تركت مدامع العشاق نهمي على ليلي المريضة في العراقِ
وإخواناً تساقطهم حديثاً يظل على المدى سحر الرفاقِ
تُكرره على شغف فيغدو مع التكرار معسول المذاقِ

وكان الدكتور مبارك في وجداناته العاطفة، يلمس مشاعر كنت أحس بها أحياناً في جنبات صدري، حتى إنني قرأتُ له خطاباً تحت عنوان (الخطاب الذي احترق) فخيّلَ إليّ أني أنا الذي كتبه، وقد طفقتُ أتعجب لهذا الإحساس المماثل، إحساس الحرمان الخائب في دنيا الوجدان، والأحاسيس تتشابه لامحالة، أما أن تتطابق بحيث يُعبّر الدكتور عن إحساسه، وكأنه ينقل من صفحة خاطري، فهذا ما ارتفع بنفسى في خلواتي الصامتة التي أتحدث عنها بدون لسان، لأنّ الحزين يتسلّى بالحزين، وبخاصة إذا كان المتسلّى به كاتباً وشاعراً من طراز رفيع، وإلى هذه الحالة المطابقة أشرت فيما قلت من رثاء الرجل فهتفت:

عواطفك التي أنشأت تجلّو غوامضها بفكر ذي اثتلاقِ

وجدتُ مثلها عندي كأننا شربنا الشوقَ من كأسٍ دهاقِ
تجرّعنا مرارتها اضطراراً فلم نغنم سوى الدمع المراقِ
وشبَّ الهجر يرمضُ جانحيناً ويؤذن كلَّ قلبٍ باحتراقِ
أكانَ من المحتمِّ أن ألقى من الوجد المبرحِ ما تُلقى
وقد عجّلتَ مرتحلاً لأحسو بقايا الكأسِ وحدي دون واقِ

وهكذا خيّل إليّ أنى برثائى الشعرى، مسحت ما قدمت فى ترجمتى النثرية للراحل العزيز.

لقاء حافل:

بعد أن حدثنى الأستاذ الجعلى بغضب الدكتور مبارك، سألتُه أن يحدّد لى موعداً للقاءه، فقال إنه يقيم بجريدة البلاغ، ولا يحتاج لموعد، إذ لا عمَل له غير كتابة مقال أسبوعى يكتبه فى منزله، ويحضر للسّمر والمؤانسة، فبادرته لزيارته، وقد حملتُ معى ديوانه الجديد (ألحان الخلود) وكان قد ظهر منذ قليل، وفى ذهنى أفكارٌ تتعلق بالديوان، رأيت أن آخذ فيها رأى صاحبه، فما كاد يرانى حتى ضحك ضحكةً عاليةً، وقال: أخبرنى الأستاذ الجعلى أنك لا ترضى عن مقالات (الحديث ذو شجون) التى تُنشر الآن فى البلاغ! قلتُ هادئاً: كلمة (لاترضى) أكبر مما تُقال بالنسبة للدكتور، فأنا أستفهم عمّا لا أعلم سرّه فحسب! لقد خيّل إليّ أن الحديث المتنقل من غرضٍ إلى غرضٍ سريعاً بدون رابط واضح، وبدون تحليل متتد قد يصلح أن يكون حديثاً للمجلس فقط، أما أن يُنشر على الناس بقلم كاتب كبير، فأنا أبحث عن تعليقه.

فقال الدكتور: لقد وقعت فى الخطأ حين فرقتَ بين حديث المجلس، وحديث الجريدة، فالأديب الصادق هو الذى يكتب كما يتكلّم، وعظمة الكاتب فى صراحته الواضحة التى تواجه الخصوم برءوس الرّماح!

سكتُ قليلاً، فقال الدكتور: لِمَ لَمْ ترد؟ قلت: لقد كنتَ منذ عشر سنوات تكتبُ (الحديث ذو شجون) بمجلة الرسالة، فكنت تهتمُّ بصقله وتركيزه وهدفه، لذلك كان القارئ لا يمل معاودته، ولكنَّ هذا الاهتمام قد تضاعف فيما تكتبُ بالبلاغ.

فرد الكاتب الكبير يقول: هناك فرقٌ بين زكى مبارك اليوم، وزكى مبارك الأمس، لأن أفكارى تبدل بتغير الزمان، لقد وجدَّ في فرنسا مذهبٌ يدعو إلى تسجيل الأديب كلَّ خواطره كما تفرغ إلى ذهنه بدون ترتيب، ليعطى القارئ صورةً صحيحةً لما يجرى بين أطباق الدم واللحم، وقد اقتنعتُ أخيراً بهذا المذهب، فعدلتُ اتجاهى، إذ كانتُ مقالات الرسالة تخضع إلى سيطرة العقل، فيحذف ويثبت، وإن خالفت ما أحسَّ به، أما اليوم فلا.

قلت: إن كلَّ كاتب يجب أن يكون للعقل نصيبٌ من توجيهه، والشاعر وهو ذاتى محض، يحتاج إلى عقله فى ترتيب الخواطر، وتصوير المشاعر، ولو تخلَّى عنه لما قدّم شيئاً يقرأ؟

صاح الدكتور: عليك أن تفهم أولاً؟ فتراجعتُ أقول: نعم، ورأى أحمل (أحسان الخلود) فقال: أى قصيدة أعجبتك؟ فقلتُ أكثره رائع، ولكنى جئتُ لأستفهم عن شىء لا أجد لدى تعليلاً واضحاً بشأنه. فابتسم الرجل قائلاً: تفضل. قلت: لا تكادُ تخلو قصيدة من قصائد الديوان بدون مقدمة نُثرية مسهبة، قد تكون مصدر غضبٍ لمن هجوتهم فيها من كبار الكتاب فلماذا؟

فردَّ الرجل، يقول: إذن لم تقرأ الديوان، لقد قلتُ فى مقدمته إن الشاعر الفرنسى الكبير (لامارتين) كان يقدم كلَّ قصيدة من قصائده الوجدانية بمقدمة تسلط الضوء على مناسبتها، وغوامض اتجاهاتها، وكانت مقدماته فى بعض الأحيان أحسن من القصائد نفسها، وهكذا فعلت.

فتجراتُ فقلت: يضيِّقُ صدرى ولا ينطلقُ لسانى! فصاح الرجل ولماذا لا ينطلق لسانك؟ أمعى كُرباج؟ أنا أعزل ضعيف.

قلت: ياسيدى، قلت إن «لامارتين» كان يسلط الضوء على اتجاهاته الوجدانية، ولكنك تجاوزت ذلك إلى السب العلنى فى أناس كبار!

فصاح: من هؤلاء الكبار؟ السنهورى؟ أحمد أمين؟ على الجارم؟ النقراشى؟ الزيات؟ العقاد؟ كلهم عندى مزيقون غير صادقين!

قلت: ولكنك مدحتهم من قبل فى كتبك الذائعة، فماذا يقول القارئ إذا فوجئ بتناقض سافر بين قولٍ وقولٍ؟

قال: أنا أمدح حين أرضى، وأهجو حين أسخط، وذلك سلوكٌ صادق أمين، والذي يثبت على رأى واحد، حجرٌ فى جبل، لا يحسّ بتقلب الزمان وعصف الرياح.

وكان الأستاذ الجعلى شاء أن ينهى الحديث، فتطرق إلى موضوع سياسى، خاض فيه الأديب الكبير بروحه الساخرة، فأمتع وإن لم يقنع! وفارقناه مسرورين.

لقاء نال:

حرصت على أن أديم لقاى بالدكتور مبارك، فساقنتى قدماى إلى جريدة البلاغ بعد قرابة أسبوعين، فما أن رأيت الرجل الطيب، حتى نهض مرحباً ومُحتضناً، فعرفت أن معارضتى إياه لم تترك غير الصدى الجميل فى نفسه، وسألنى: أين ديوان ألحان الخلود؟ فقلتُ هو فى صدرى أحفظ أكثره، قال: وأى قصيدة أعجبتك؟ قلتُ: قصيدة بغداد! فقال: الله أكبر! لقد أعجب بها شاعر العراق الكبير الأستاذ محمد رضا الشببى وزير المعارف الأسبق، لأنه ناقد، وضاق بها على الجارم الموظف بوزارة المعارف، لأنه حاقد! قلت: القصائد ترتفع عند قوم، وتنخفض عند آخرين، لاختلاف وجهات النظر، فقال الدكتور: من أين جاءك هذا الاحتيال، الحق هو الحق، ولن يكون الاختلاف أبداً فى القصائد الممتازة، ولكنه يكون فى القصائد المتوسطة التى تحمل القوة والضعف معاً، فيميل قوم إلى الإغضاء عن المحاسن لتجسيم المساوى، ويميل قوم إلى تضخيم المحاسن ليقضوا

على المساوىء، وقصيدة بغداد، كلها محاسن، وقد حاربها الأستاذ السباعى البيومى فى دار العلوم.

قلت: لقد شهدتُ معركتك الأدبية مع الأستاذ السباعى! قال: وماحكمتك عليها؟ قلت: السكوت أولى! فأطرقَ الدكتور مبارك، وقال عجباً: لقد اعترف الناس جميعاً بأنى انتصرتُ فى معاركى مع طه حسين، وأحمد أمين، وأحمد زكى باشا، ولكنهم يصرون على أن الأستاذ السباعى قد انتصر، وأنا لم أحارب السباعى إلا بُرْبُع قوتى، لأنى كنت أشفق عليه!

قلت: ولهذا انسحبت أنت من المعركة، ففاز هو بالانتصار! قال: إن السباعى قد حاز رضا القراء لأنه حاربنى بسلاح الشتم والسب، وماكنتُ أظن أنه يملك هذه الثروة البغيضة من السباب!

سكت فلم أنطق! فقال: لماذا لا ترد؟ قلت لتكلم فى حديث آخر، فصاح مبارك: ولماذا؟ قلت فى هدوء: أخشى أن أغضبك حين أقول إن الذى بدأ بالسباب ووالى الشتم هو الدكتور زكى مبارك، وكان السباعى مهذباً فى مقاله الأول، فلما رأى النار تحيط به من كل مكان، أوقد ناراً مثلها، فأزعجت الدكتور، وآثر الانسحاب!

قال مبارك: هذا بعضُ الحق، وليس الحق جميعه، لقد حدثنى الأستاذ محمد خليفة الجعلى أنك من أبناء كلية اللغة العربية، والسباعى أستاذ بدار العلوم، فلماذا تتعصب له هكذا، وبين الأزهريين والدرعميين ما بين الأوس والخزرج فى الجاهلية؟!

قلت: ولكننا نحن اليوم فى الإسلام، وأنا أعترف بأن معاركك الأدبية أحلت منزلتك لدى القراء، وقد قال الزيات: إنك الملاكم الرياضى بين الأدباء.

اعتراف:

سكت الدكتور مبارك، وأخرج من جيبه ورقة أخذ يقرأها، فهملتُ بالانصراف، ولكنه ضغط على يدى التى قدمتها للمصافحة قبل الخروج، وصاح:

اجلس، اجلس - سأعترف لك بشيء خطير، خطير جداً، أرجو أن تذيبه، وتسجله على.

لقد قلت إن معاركي الأدبية هي التي أعلنت منزلتي لدى القراء، وهذا حق، ولكن هذه المعارك هي التي حرمتني حقى في بلدى، لقد نلت ثلاث دكتوراهات من الشرق والغرب، وطمعت أن أكون أستاذاً بكلية الآداب مثل الذين لم يحملوا أية دكتوراه، وليس لهم سلاح غير الخضوع والاستسلام، فأخذوا يترقون فى السلك الجامعى وهم تلاميذ بالنسبة إلىّ، وقضى على أن أظلّ بوزارة المعارف، فقبلت على مريض، ثم استكثرت على أن يدوم لى التفتيش بالوزارة، ففصلتني السنهورى، والسبب كله كلمة الحق التي أزعجت أمثال طه حسين والسنهورى والجارم والنقراشى والقبانى! أنا شهيد الحق! والناس يعرفون ويسكتون!

قلت: نعم إننا نعرف هذا كله، ولكننا لن نسكت، كما لم يسكت المنصفون من أمثال منصور فهمى، والمازنى، وعبد القادر حمزه، وحسبك بهم من أنصار! واستأذنت إلى غير لقاء.
